# بلاغة الحوار والحجاج

## دراسة في مفاخرة ابن الزبير وابن عباس

أ.د رمضان صالح عباد م.م نور رعد عبد الله
جامعة تكريت / كلية التربية للبنات مديرية تربية صلاح الدين

ملخص البحث

اثارة زوجة عبد الله بن الزبير الحوار يوم دخل بها بعدم إقرارها ان يكون زوجها كالرأس من الجسد والعينين من الرأس في قريش ، لعلمها ان بني هاشم لا يقرون له ، فاستدعى عبد الله بن عباس وجماعة من اقربائه فطرح عليهم ما قال لزوجته وطلب رأي ابن عباس الذي واجهه وحاوره راداً قوله عليه ولم يُقرّ له بما تمنى فسار طابع بلاغة الحوار والحجاج في أربعة مستويات ، بدأ أولها الحوار هادئاً مستنداً ابن الزبير الى فخرٍ بالآباء والنساء وقرابتهم من الرسول محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ما دعى ابن عباس ان يردّ عليه فخره وأنه أحق منه بهذا الفخر كونه ابن عمه .

اما المستوى الثاني فتشدد ابن الزبير في مفاخرته بقومه قبل الإسلام فأرضى ابن عباس لعلمه بمكانة أجداده قبل الإسلام ( عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ) هم اشرف من ( خويلد بن اسد بن عبد العزى ) اجداد ابن الزبير فأقرّ له الحضور بذلك فكان ذلك من الأجوبة المسكة لخصمه ، اذ اجاد بلاغة الحوار بقوة الحجة وحسن الإيصال بملفوظ شفوي تفاخري أحسن الرد فيه فارتفع صوته بالغلبة واشفى صدر زوجة ابن الزبير التي نهته عن المفاخرة مضمناً ابن عباس حواره بعض

الامثال والشعر العربي مقوياً حجاجه بها وبدا موقف ابن الزبير متضعضعاً فمال في حواره وحجاجه بالتعيير بالمثالب ، في المستوى الثالث ، في الجاهلية والاسلام فعكس ابن عباس أقواله ورد عليه وفندها فأفحمه مرة اخرى وتدخل الحضور لانهاء المفاخرة ولم يقبل ابن الزبير فبدأ المستوى الرابع من المفاخرة بحدة وقسوة فشمل تهديداً بالشتم والضرب فردّ عليه عبد الله بن الحصين بن الحارث بن عبد المطلب بأنه لو حاور ابن عباس من ساعته الى انقضاء عمره لكانت الغلبة لابن عباس فإن شئت أن تستمر أو تترك ، فإنصرف القوم .

Abstract

Stir Abdullah bin Zubair wife dialogue on the income of the non-approval to be her husband as the head of the body and the eyes of the head in the Quraish, knowing that the children of Hashem do not recognize him, summoned Abdullah bin Abbas, and a group of his relatives threw down on them what he said to his wife and asked the opinion of Ibn Abbas, who interface Interviewed Rada as saying he did not recognize him as he wished he led the character of eloquence and pilgrims dialogue in four levels, it began the first of quiet dialogue based on Ibn al-Zubayr to the pride of parents, women and kinship of the Prophet Mohammed (peace be upon him) what was called Ibn Abbas that is given him his pride and that deserving this pride of it being his cousin.

The second level strengthened himself, Ibn al-Zubayr in Mfajrth Bakovernm before Islam Vordy Ibn Abbas

to learn the status of his ancestors before Islam (Abdul-Muttalib bin Abdul Manaf) are supervised from (Khuwaylid bin Asad bin Abdul Uzza) grandparents Ibn al-Zubayr endorsing his attendance so was that of the answers Grab his opponent, as Shred eloquence dialogue strongly argument and good receipt Bmlfoz oral ostentatious best answer the rising voice Balgelbh and heal issued Ibn al-Zubayr wife that Nhth for bragging included Ibn Abbas dialogue some aphorisms and poetry nourishing and restorative Moslem pilgrims it appeared the position of Ibn al-Zubayr Mtdedaa inclined in his dialogue and Moslem pilgrims Baltaaar Palmthalb, at the third level, in ignorance and Islam Fks Ibn Abbas, his words retorted and refuted Vovhmh again and the intervention of the audience to end the bragging did not accept the Ibn al-Zubayr began the fourth level of bragging sharply and cruelty covered a threat to insults and beatings replied Abdullah ibn al-Husayn ibn al-Harith bin Abdul Muttalib that if engaged in a dialogue Ibn Abbas from his watch to the expiration of the old were to prevail, the son of Abbas you want to continue or leave, depart folk.

تمهيد :-

أثارت حفيظة ابن الزبير زوجه أم عمرو بنت منظور بن زَبَان الفَزَارية ليلة دخل بها، وقد حمله الزهو والاعتداد بنفسه أن بدأها بسؤال ، كان بمثابة المفتاح لما جرى

بعده من مفاخرة محتدمة ، قوله(( أتدرين من معك في حَجَلَتكِ (1) ؟قالت : نعم ، عبدالله بن الزبير بن العّوام بن خُويلد بن أسد بن عبد العُزى ، قال: ليسَ غير هذا؟ قالت: فما الذي تريد؟ قال: معك من أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس؛ قالت : أما والله لو أن بعض بني عبد مَناف حَضَرك ، لقال لَكَ خلاف قولك، فغضب وقال : الطعامُ والشرابُ عليَّ حرامٌ حتى أُحضِرَكِ الهاشميين وغيرهم من بني عبد مَناف، فلا يستطيعون لذلك إنكاراً ، قالت : إن أَطَعتني لم تَفعل ، وأنت أعلم وشَأْنَكَ))(2) .

بدأ الحوار بين الزوجين مباشراً وهادئاً ، مبنياً على سؤال ابن الزبير (أتدرين من معك في حَجْلَتك؟ قالت : نعم ) فذكرت اسمه وسلسلة نسبه ، ظانةً أنه قصد ذلك، وما عساها ان تقول في ليلة دخلتها غير ما تعرف :- إذ كان جوابها ينمّ عن واقعية ، وليس أكثر من ذلك ، ولم يكن جوابها مرضيا لزوجها ، إذ أنكر قولها متعجباً (ليس غير هذا؟) ما دعاها أن تستفهم عن قصده وما يدور في خلده (فما الذي تريد؟) وكان نظر آبن الزبير الى اكثر مما ذكرت زوجه من نَسب ، فأنه يريد مكانته الاجتماعية الحالية من قريش بعد وفاة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وأمراء المؤمنين وكبار الصحابة ، معتقداً أن الساحةَ خلت له ولا يطاوله أحد في مقامه ، فجاء جوابه لها بما حَلُمَ به (قال: معك من أصبح من قريش بمنزلة الرأس من الجسد، لابل بمنزلة العينين من الرأس) وهو بهذا لا يرى أحد فوقه من قريش، دالاً على غاية آنتهاء الأمر اليه من خلال دلالة (الرأس من الجسد – والعينين من الرأس) مفتخراً بموقعه وما صار اليه ، رامياً من وراء ذلك الى موافقة زوجه لمقوله بأنها أصبحت زوجة سيد قريش ، بيد أنها كانت صاحبة رأي وحكمة وكانت أكثر تعقلاً من أقرارها بما أراد ويبدو أنها كانت تعرف فضل الناس، ومكانتهم فآعترضت على زوجها مصرحة بقولها وحوارها (أما والله لو أن بعض بني عبد مناف حضرك لقال لك خلاف قولك ) وعلى الرغم من هدوئها في الطرح والمحاورة ، الا أن قولها كان مؤكداً بأكثر من مؤكد لردِّ دعوى زوجها بالقسم الصريح واللام في جوابه ، والشرط وان الحرف المشبه بالفعل ( والله لو أن ...لقال) وبهذا الانكارُ المؤكَد المستفز حصل صبُّ الزيت على النار إذ أثارت زوجها وأغضبته ، فحمله الامر الى التصرف بحدة صاعقة في حواره مع زوجهِ محرماً على نفسه الطعام والشراب حتى يحضر من عبد مناف وغيرهم فيقرون له ، وأرادت الزوجة منعه مُدلية بصوت النصح والرأي السديد خوفاً من انفتاح الامر على شيء لا تحمدُ عقباه ، وكانت سبباً فيه ، في قولها ( إنْ أطعتني لم تفعل ) ففي

جملة الشرط وجوابه محمول تضمن نهياً عمّا عزم عليه زوجها ، بيد ان اللغة التي أتخذتها ليست اللغة الناهية أو الآمرة ولكنها لغة المودة والنصح بين الزوجين التي لم ترد تعقيد الأمر فتركت له الخيار ( وأنت أعلم وشأنك) اذا كنت مصراً ، وعملاً بعدم تزّويه وشدة الدافع الذي يساوره، خرج الى المسجد لإحضار من يجده من الهاشميين وبني عبد مناف ليقروا له ويشهدوا أمام زوجته بصواب مقاله، فوجد مجموعة من القرشيين بينهم عبدالله بن عباس وعبدالله بن الحصين بن حارث بن عبد المطلب بن عبد مناف فدعاهم وأحضرهم الى بيته وأطعمهم وأمرَ زوجه بأن تطرح سترها لتسمعَ وترى فأخبرهم سببَ جمعهم بأن زوجته رَدت حديثه عليه وزعمت أن بعض بني عبد مناف لا يقرون له (( وانت يآ بن عباس ما تقول؟ إني أخبرتها أنَّ معها في خِدْرَها(3) مَن أصبحَ في قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لابل بمنزلة العينين من الرأس فَردت عليّ مقالتي ))(4)

المفاخرة

اضحى المقصود من المفاخرة عبدالله بن عباس إذ قال((أراك قصدت قصدي ، فإن شئت أن أقول قلت ، وإن شئت أن أكفَّ كففت ))(5) فاذا أقرَّ له بذلك حقق بغيته ، وانتهى الامر ، وان رده عليه خاب سعيه وبان فشله امام زوجه ، وكان خطاب ابن عباس الحواري ، وهو في بيت ابن الزبير ، بسيطا حافظا للمجاملة مُصّدراً باسلوب الشرط الذي حمل تخييراً في الردّ أو الكف عنه ، ( إن شئت...قلت ↔ إن شئت ...كففت ) وجاء ردّ ابن الزبير متحدياً لابن عباس واثقاً من نفسه مصراً على رأيه في قوله : ((بل قل وما عسى ان تقول؟))(6) ، إذ فتح هذا الكلام باب المفاخرة وسعى الى تشييد نص حواري مبني على حجاج مسلح بملفوظ شفوي تصاعدي مرتهن بفخر واقع تحت السلطة الذاتية والاجتماعية والنفسية الخاضعة لحتمية تاريخية ، كان حصيلتها انتاج نص يعلو فيه الحجاج المحكوم بمرجعية معيارية اجتماعية من خلال ما تراكم في الذاكرة أو الذاكرة الاجتماعية عند تسجيل الافكار التي تحيل الى الدلالات وتغيرها في حدود النص .

لقد ارتبط الحوار والحجاج في النص بالملفوظ الصوتي المؤثر بالمتلقي الذي تزداد وتيرته عندما تشتد المفاخرة وتحتدم بفعل قوة الحجاج وبلاغته والمفاضلة والتحدي الفخري الاجتماعي الذي يزداد تفاعله بخصوصية التغاير الذي تحتمه الدلالات الاخلاقية المسنودة بقوة الحجة بين الموقفين ، وانطلاقاً من التمايز بين القولين فقد يتولد منهما الاشتراك في موضوعة المفاخرة والموازنة التي تحيل الى الانظمة الاجتماعية أو العقيدية عندما تفجر مكنونات نفسية ذات طبيعة إثارية مقصدية تسهم

في ضخ القيم العلائية ورفع شأنها فضلاً عمّا تحدثه من فوارق في بنية الاختلاف والإئتلاف عند الحجاج وسبل تدرجه وتراكمه من خلال النظرة المتوازنة الى زاوية المعنى وما يتحقق من دلالات ناتجة عن شبكة من العلاقات المعنوية المعتمدة على عناصر خطابية حوارية ترتبط بالعديد من الأصوات والصراع او الصدام بغية الهيمنة على الموقف ودحض مسلمات المقابل وحجته .

بدأ ابن الزبير بأإثارة اسئلة تراكمية مضمناً اسلوب الاستفهام معنى انكارياً مقصوداً في نفس المتلقي ، ابن عباس ، يدعوه الى الاقرار والاثبات بدل الانكار والعنت ، وانه في اقرار السامع كسباً لتأييد الحضور والشهود في المجلس وعدّ ذلك حجة مؤكدة تسهم في حيازته لقصب السبق ، إذ حشد ابن الزبير حواره بخمسة اسئلة عدّها حججاً ثابته عند الناس توجب الاقرار كونها موافقة للحق ولا مجال للمطاولة والانكار على وفق المسلمات التي يشهد بها المسلمون وابن عباس نفسه في خطاب ارتفع فيه صوته قائلاً: ((ألستَ تعلم أن أبي الزبير حَوارِيُّ(7) رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصّدِّيق ذات النطاقين(8)؟ وأن عَمتي خَديجة سيدة نساء العالمين؟ وأن صفيّة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جَدّتي ؟ وأن عائشة ام المؤمنين خالتي ، فهل تستطيع لذلك إنكاراً ؟))(9) .

نهضت اسئلة ابن الزبير على أسلوب الحوار الذي يتطلب جواباً تصديقياً بالإجابة والاقرار بنعم أو لا اذا كان السؤال بالهمزة والنفي(1.) ونلمح من فخره نفساً جاهلياً من جهة النسب ، وما ينطوي عليه من عمل كريم وشريف يرتبط بالاسلام والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانه لم يفخر بفعله ومكانته ، بل كان محل اتكائه على من له علاقة قريبة من بيت النبوة ، وكأنه يستمد الشرف منه على غيره مستأثراً بما اعتقده أنه أولى به ، وتيسيراً لخطاب الحوار الحجاجي الفخري في النص وبيان ما ينطوي عليه العرض من تحليل قسمنا مستوياته التي اشتغلت عليها المفاخرة على أربعة مستويات :-

المستوى الاول : تَمَثل في ردّ ابن عباس على اسئلة ابن الزبير بإسلوب حمل طابع الهدوء والتعقل فلا يرمي من ورائه الى الخلاف والمشاحنة وإثارة الأحقاد ، وانما جاء ردّه مثرياً للحوار واستدامته بصورة قصد فيها إقناع ابن الزبير باقراره بالشرف ثمَّ أدارَ حديثه الى أن الفضل لاحِق به وليس لابن الزبير ، بطريقة حول فيها مقصده وقلب عليه حجته قائلاً : (( لا، ولقد ذكرتَ شرفاً شريفاً ، وفخراً فاخراً ، غيرَ أنكَ تفاخر مَنْ بِفخره فخرتَ ، وبفضله سَموت ، قال : وكيف ذلك؟ قال: لانكَ لم تذكر فخراً الا برسول الله صلى الله عليه واله ، وأنا أولى بالفخر به منك ))(11)

مثل الفخر طابعاً اسلامياً خالصاً مرتبطاً بدلالة التشريف بالنبي محمد (ص) بادئاً ابن عباس حواره بالاقرار وعدم الانكار (لا) مردفاً هذه اللفظة بإنكاره على ابن الزبير حديثه وفخره وسموه وشرفه انما لحقه من قربه رسول الله (ص) بوساطة مَنْ ذكر، وقد نسي ابن الزبير من يفاخر ؟ (وكيف ذلك ؟ )) إذ يرى ٱبن عباس أنه أولى بالفخر منه لانه الاقرب الى بيت النبوة نسباً ، ابن عم النبي (ص) ، فضلاً عن أَن جُلّ ٱفتخار ابن الزبير مرده الى قرابة النساء لا الرجال .

المستوى الثاني : كان ردّ ابن عباس السابق مسكتاً مفحماً لابن الزبير الذي اتبع حديثه بلهجة حوارية متشددة مخيراً هذه المرة ابن عباس بأن يكون الفخر جاهلياً ،وعلى الرغم من انه لايليق بصحابيين كريمين قريبين بعضهما من البعض بيد أن ابن الزبير قاده الاصرار في التغلب والانتصار ؛ لِحدةٍ في طبعه ومزاجه ساعياً الى إقناع الحاضرين بصحة زعمه واثبات ذلكَ أمام زوجه ، إذ وقف في موقف لايحسد عليه عند مبادرته القول لابن عباس ((لوشئت لفخرت عليك بما كان قبل النبوة ، قال ابن عباس قد أنصفَ القَارَةَ(12) مَن رَامَاها ))(13) ينمُّ جواب ابن عباس غاية في الرضا من خلال دلالة المثل الذي أورده وقد أنصفه ابن الزبير في خطابه ومحاورته عندما قصد الفخر بالآباء قبل الاسلام إذ فتح باباً من ابواب الحجاج والتفاخر المتدرج بصورة تراكمية مصدقة من الحضور في قوله : (( نشدتكم الله أيها الحاضرون ، أعبد المطلب أشرفُ ام خويلد في قريش ؟ قالوا عبد المطلب ، قال : أفهاشم كان اشرف فيها ام أسد؟ قالو: بل هاشم . قال : أفعبد مناف أشرف أم عبد العُزى ؟ قالوا: عبد مناف))(14) اتخذ ابن عباس اسلوب القسم بما يوجب على الحضور التصديق على اسئلته التي تحتم الجواب بنعم أو لا، من جهة القوم العارفين بمواقع الناس وشرفهم ، فيما قدم من طروحات تمّ الاقرار بها جميعاً فلا يختلف عليها اثنان معرضاً بخصمه ، ما جعل ابن الزبير لايُحار جواباً ، إذ حمل هذا النص صورة المنافرة والتفاخر ، التي تقتضي حكماً يفصل بين الطرفين ويحكم لأحدهما على الاخر ، وكان الحكم مجموع الحاضرين في المجلس الذي صدق أقوال ابن عباس وأيدها ، وهنا برزَ صوت الحوار الجماعي ليتدخل في حسم الأمر لاحد المُتفاخِرين ، فضلا عن صوت خفي داخلي كان شاهداً على الامر يحتدم في صدر زوجه ، وعلى الرغم من تعدد الاصوات الا أنها ٱتفقت أن تصبَ في وحدة قولية خطابية فاصلة هيمن فيها جواب التصديق في اسلوب الاستفهام (نعم أو لا) وجاء ملفوظ ابن عباس في خطابه بصورة تقابلية تنهض على التشريف بالنسب في الآباء والاجداد والأسر(عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف) وبين (خويلد بن أسد بن

عبد العزّى ) وهذا الحوار الفخري بدأ متدرجاً وتصاعدياً فيه الحجج القاطعة للشك في موقف اشتدّ ليقطع ابن عباس كل ما يَحلُم به آبن الزبير في طريقة شغلها التحدي وتكميم الافواه ، ولم يقف ابن عباس عند هذا الحد بل لجأ الى الشعر مضمناً خطابه الحواري الفخري بيتين فيهما خلاصة ما حدث ، مُمعناً فيها بالحجة ما أصاب ابن الزبير من خطل في المفاخرة التي آنتهت الى المنافرة ، ولابد من تقدم أحد الطرفين في قوله:-

(( تُنَافِرنِي يآبنَ الزبير ! وقد قَضَى عليك رسولُ الله لاقولَ هازِلِ
ولو غيرنا يآبن الزبير فَخَرته ولكنّما سَامَيتَ شمس الأصائِل(15) ))(16)

تعجب ابن عباس من ابن الزبير في أمرين لم يلتفت اليهما ، أولهما تمثل في تفضيل النبي (ص) بني هاشم على الناس كلهم ، والآخر جاء في صورة بيانية (تشبيهية)بان بني هاشم كشمس الأصائل لا يسمو عليهم شيء ولا يتقدمهم أحدٌ بشرف ، واذا أراد ابن الزبير غير بني هاشم لجاز له الفخر ولعُرف قدره بين الناس ، لكنه لم يقدّر الامر بصورة واقعية، ثم أمعن ابن عباس في دحض آدعاء ابن الزبير وحجه إذ آستعار وسيلة حجاجية أخرى تؤكد تفوقه فأقتبس قول الرسول (ص) ((ما آفترقت فرقتان الا كنت في خيرهما(17) ))(18) وبدأ يعلو صوته متبعاً الطريقة الحوارية نفسها التي تبدأ بالاستفهام بالهمزة في قوله :- (( فقد فارقناك من بعد قُصَيّ ابن كِلاب ، أفنحن في فرقت الخير أم لا؟ إن قلت نعم خُصِمتَ ، وإن قلت لاكفرتَ، فضحك بعضُ القوم))19) وهنا أجاد في حسن التخلص وسد باب الإجابة بإفحامه ابن الزبير ثم حاور ابن عباس نفسه إذ اجاب عن سؤاله الموصل الى إحدى النتيجتين في خطابه لابن الزبير الذي حمل استهزاءً أضحك بعض الحضور لشدة إفحامه له، وبقوة حجاجه المبني على منطق سليم في مقدماته ونتائجه التي أثارت ابن الزبير فتصرف تصرفاً حمل تهديداً شديداً في قوله (( أما والله لولا تحُّرمك(2.) بطعامِنا يآبن عباس لأعرقت جبينك قبل أن تقومَ من مجلسك، قال آبن عباس: ولِمَ أبِباطل ؟ فالباطل لايغلبُ الحقَ ، أم بحقٍ ؟ فالحق لايخشى من الباطل ))(21) أظهرت هذه الجزئية الخطابية من الحوار الحجاجي المتنامي رفداً جديداً بوسائل حجاجية بنيت على اسلوب الاستفهام والتصديق (بنعم أولا) جواباً على قسم ابن الزبير وتهديده لابن عباس عندما (أضحك القوم) مبيناً في قسمه الصريح (والله + الشرط – لولا تحرمك ...لاعرقت جبينك...) وبهذا التهديد الشديد المؤكد بعدة مؤكدات يتبين فزع ابن الزبير من أجوبة ابن عباس المفحمة التي آستعمل فيها

اسلوب الاستفهام وسيلة لبيان سبب انزعاجه (لِمَ) التي تتطلب جواباً محتجاً عليه بلفظتي ( الحق والباطل ) اللتين أدارهما في تركيبين متقابلين كُرر ثلاث مرات بُنيا على النقض والاختلاف ،( أبباطل ؟ فالباطل لا يغلب الحق × ام بحق ؟ فالحق لا يخشى من الباطل ) فَشهرَ ٱبن عباس في وجه خصمه قوة الحق الذي لا يغلبه الباطل ولا يخشاه متحدياً بذلك ابن الزبير ومصراً على النيل منه ، وهنا تدخل صوت حواري آخر شغل بالحوار مُستمعاً الى قوة الحِجاج وبلاغة القول مذكراً بأسباب الفخر (صوت الزوجة) التي أشفقت على زوجها ، وكأنّها تذكره بنصحها الذي لم يسمعه أو ينتبه اليه فقالت: (( إني والله لقد نهيته عن هذا المجلس فأبى إلا ما ترون ))(22) فقد أكدت قولها بمؤكدات تشفع لها بحصافة الرأي (إنّ + القسم و لامه + قد + الا) ، وأدرك ابن عباس ان الزوجة تلوم بعلها فأراد ان يحفظ لها مكانته في نفسها ، فلا يغبن حق الرجل وهو الخبير بحقيقة الرجال ، إذ أجابها بِصوتٍ فيه ثناء على ابن الزبير قائلاً(( مَهْ أيتّها المرأةُ ، ٱقنعي بِبَعلكِ ، فما أعظمَ الخطَرَ ، وما أكرم الخَبر ))(23) وهنا طمأنة لنفسها التي ٱهتزت من جَرّاء ما سمعت ، من قوة ابلاغ وايصال في الحوار .

وتعالت اصوات القوم ساعين الى انهاء المحاورة الفخرية (( فأخذ القوم بيد ابن عباس وكان قد عمي ، فقالوا : ٱنهض أيها الرجل فقد أفحمته غير مرة فنهض وقال :

ألا ياقومَنا ٱرتحِلوا وسِيروا × فلو تُرِكَ القَطَا لغَفَا ونَامَا ))(24)

تداخلت أصوات القوم وحوارهم مع صوت ابن عباس مقرين له بافحامه ابن الزبير أكثر من مرة ، وهنا يستدعي بيتاً من الشعر ضمن قوله ضارباً به المثل كحجة فاعلة في الغلبة من خلال التشبيه المُبين لموقفه (لو ترك ابن عباس لشأنه لما حدث ما حدث) ولكنه اصرار ابن الزبير على هذه المفاخرة ، معيدنا الى بدايتها ومسترجعاً قول ابن الزبير في حواره الداخلي مع نفسه (قل وما عسى ان تقول) .

والمفروض بعد هذا الموقف ان تختتم المحاورة وتنتهي بشهادة القوم بغلبة ٱبن عباس ونهوضه لولا اصرار ابن الزبير على استمرارها وعدم تسليمه بما سمع لينقل المفاخرة الى نقطة تحول في مستوى آخر .

المستوى الثالث : تمثل بالمستوى الحماسي الذي خلط فيه ابن الزبير التعيير بالمثالب بالفخر للنيل من ابن عباس لغرض الثأر لنفسه بوسيلة الانتقاص من شأن مُقابِله باعتقاده ٱمتلاك وسائل حجاجية أخرى لم يُفْرِغْها بعدُ داعياً ابن عباس لانصافه وسماع مقوله (( يا صاحبَ القطا أقْبِل عليّ ، فما كنتَ لِتَدَعني حتى أقول :

وأيمُ الله لقد عَرف الأقوام أني سابق غير مسبوق ، وابن حَوَارِيٍّ وصدِّيق، مُتَبَجِّح(25) في الشرف الانيق ، خير من طليق(26) وابن طليق))(27) حملت هذه الجزئية من خطاب ابن الزبير الحجاجي الفخري تحولاً الى المفاضلة بين الطرفين اذ مزج فخره بنفسه وبأبيه وبشرفه وكأنّه يريد ان يلقى بكل ما عنده ليرمي خصمه به عاملاً من القسم والمؤكدات وسيلة تحدٍ ومفاضلة (وايم الله + اللام +قد +أني)بعدّه المحاسن مما هو معلوم عند الناس (أني سابقٍ غير مسبوق + ٱبن حَواريٍّ وصِدِّيق +متبجح في الشرف الانيق ) لاجئا الى الجمل القصيرة المؤكدة المسجوعة بحرف القاف معلياً من ملفوظه الشفوي رافعاً صوته الموقع ، مع اقرار الحضور له بذلك الا أنه انتقص من ابن عباس وذمّه باستعماله لاسم التفضيل (خير) بوصفه وسيلة للتفوق والمفاضلة على خصمه عند الموازنة (خير من طليق وٱبن طليق) وهنا يحيل ابن الزبير الذاكرة الجماعية الى استرجاع موقف سابق فيه ثلب لابن عباس والنيل منه بموقف والده (العباس بن عبد المطلب) أبان معركة بدر حينما شارك مع المشركين ضد المسلمين ، ووقوعه في الاسر ، وفدائه لنفسه ، غير ان ابن عباس لم يُسَلم بالامر وانما حاوره بمنطق يستند الى فكر عميق وخبرة في المحاورة والمداورة واحسان الرد والاقناع (( فقال ابن عباس : رُسِغْتَ بِجَرَّتِك(28) فلم تبق شيئاً ،هذا الكلام مردود ، من أمرئ حَسُود ، فإن كنتَ سابقاً فألى مَن سبقتَ ؟! وان كنت فاخراً فبمن فَخَرتَ ! وان كنت أدركت هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا ، فالفخر لك علينا ، وان كنت إنما أدركته بأسرتنا فالفخر لنا عليك والكَثْكَثُ (29) في فمك ويديك ))(3.) ٱنطلق ابن عباس في حواره على حديث مبني على منطق سليم أدى الى قلب فَخر ابن الزبير عليه وليسَ له فَرَدَّ مقوله لحيازته الفخر وإدراكه بفضل بني هاشم ، وقد أفاد ابن عباس من وسيلة حجاجية أخرى تمثلت بحالة ابن الزبير النفسية وما جُبل عليه من طبع حسود لا يقرّ بالفضل لغيره ، موضحاً مسألة ذات اهميه متعلقة باتهام لأبيه مبيناً فضله مثنياً عليه ومُعرفاً بموقف الزبير بن العوام من بيعته للأمام عليٍّ كرم الله وجهه ونكثه البيعة بمسيره لِقتال الأمام في وقعة الجمل ثم اعتزال القتال(31) إذ قال ((واما ما ذكرت من الطّليق ، فوالله لقد ٱبُتلي فصبرَ ، وأنعم عليه فشكر ، وان كان والله لوفياً كريماً ، غير ناقض بيعة بعد توكيدها ولا مُسْلِمٍ كَتِيبةً بعد التأمّرِ عليها))(32) .

بدأ ابن عباس مثنياً على موقف أبيه مستعملاً المؤكدات (بالقسم ولامه وقد التحقيق) في جملتين متوازنتين مسجوعتين فيهما تقابل وايقاع جميل (ابتلى فصبر ـــــ أنعم عليه فشكر) متبعاً ذلك بأوصاف العباس الحميدة في جُملة القسم المؤكد المبين

بخصال الخير في والده (وفياً ــ كريماً) وهنا يُسبغ من الصفات المعنوية التي لها أثر ووقع في حالة المقابل النفسية ، وهنا كرر القسم الصريح بالله لأثبات حقيقة ونقض أدعاء .

وقد أشتد الخلاف وأرتفعت أصوات المُتَحاورَين إذ أوغلت بالتعيير بالمثالب في المواقف ، وكلٌ حمل نفسه للدفاع واثبات نقيض زعم الأخر فخرج الأمر الى المسار الحماسي في المواجهة والملاقاة في الاقوال والصلابة في التمسك بالمقالات النهائية التي لا تنمّ عن خير سوى الكشف عن المطاعن والمثالب ما دعى ابن الزبير الى قطع كلام ابن عباس ((فقال ابن الزبير: أتعيّر الزبيرَ بالجبن؟ والله إنك لتعلمُ منه خلاف ذلك ، قال ابن عباس : والله إني لا أعلم الا أنه فرَّ وما كرَّ ، وحاربَ فما صبرَ ، وبايع فما تمّمَ ، وقطَع الرّحم ، وأنكر الفضل ، ورام ما ليس له بأهل:

وأدركَ منها بعضَ ما كان يرتجى × وقَصّرَ عن جَرْي الكرام وبَلَّدَا

وما كانَ مِنها إلّا كالهَجِين أمامه × عِتَاقٌ ، فجاراهُ العِتاق فأجْهدا )) (33)

أنكر ابن الزبير على ابن عباس اتهامه الزبير بن العوام بالجبن كون الذاكرة الجماعية عند المسلمين تشهد خلاف ذلك في الحرب مع الكفار وبشجاعة الزبير في الفتوحات كلها ، لكن ابن عباس لم يقصد ما عرف عن الزبير آخذاً عليه موقفه من بيعة الامام علي كرم الله وجهه وخروجه عليه ومحاورته إياه بانه أولى منه بإمارة المسلمين فضلاً عن أنه أعتزل المعركة ، وقطع رحمه مع الامام عن طريق والدته صفية بنت عبد المطلب ، منكراً الفضل الذي لحق به من قرابته لابناء عبدالمطلب ، وعمد ابن عباس الى (اسلوب القسم حاشداً معه توكيدات لغاية تقوية وسائل الحجاج ، وميداً من جمله القصيرة المسجوعة قوة في التعبير والتأثير ، إذ ألحق بالزبير مجموعة من الاوصاف عن طريق حشده عدداً من الافعال الماضية ونقيضها ( فرَّ – ماكر ، حارب – فما صبر ، بايع – فما تمم ، وقطع – وانكر ،ورام – ما ليس له) وهنا يشدد على جانب معنوي ينال فيه من الزبير محاولاً اتهامه بالتخاذل والتردد والجبن الى غير ذلك مما يلفت انتباه الحضور ، ولم يكتف بهذا التراكم من صفات الثلب وانما اراد ان يلخص موقف ابن الزبير بأجمعه بالصورة التي عبر عنها في البيتين (وأدرك ...وما كان الا كالهجين) بحيث تمّ توظيف محمول الشعر الذي استدعاه على وفق متطلبات الموقف والمقام ، قصد تقريب المعنى وتعميقه زيادة في الطعن والايذاء .... وخلاصة لحواره وحجاجه بما أومأ به الى ابن الزبير الذي أدرك فضلا رجاه من غيره مبيناً موقفه من مجاراة الكرام ومسابقتهم مقابلاً بين

شطري البيت الأول مقابلة تخالف (أدرك منها ...وقَصِّر عن...) مستفيداً من اسلوب القصر (ما و الا) بقصر صفة الهجنة على آبن الزبير (وما كان إلا كالهجين ) وهو غير الاصيل ، حاملاً صورتين متناقضة ، لكل منهما حقيقة ثابتة في الذاكرة العربية كوسيلة من وسائل بيان المطاولة والسبق في الأفضلية وتعميق المعنى فهو (كالهجين أمامه عتاق) وهنا صورة تشبيهية رمى من خلالها أمراً مقصوداً (ابن الزبير كالهجين) (وابن عباس كالعتاق) في موقفين تظهر عورة أحدهما عند الجري والمسابقة (فجاراه العتاق فأُجهدا) وهي مطاولة غير متكافئة للحوق صفة التقصير بالهجان التي عبرت عنها الافعال الواردة في البيتين (قصّر – بلّدا – أُجهدا ) وهنا تدرج الحجاج وتعمق ونال من ابن الزبير نفسياً ومعنوياً وبخاصة عندما آستدعى التشبيه الحسي المستمد من الطبيعة الحيوانية للمقارنة الدالة على كرم الأصل وأرومته (الخيل العتاق) ونقيضها (الهجان) وهذه المقابلة نَقَضَ فيها حق ابن الزبير في الفخر والفضل مع ابن عباس وعليه ان يعرف من يفاخر ويفاضل على الرغم مما حقّ له في ذلك ولكن مع الاخرين .

وبقوة لَسُن ابن عباس وحجاجه وحواره وشرفه أتى على كل ما منّت به ابن الزبير نفسه امام زوجه ، وكان حديث ابن عباس ارضاء لما في نفسها فينتقل الحوار بعد هذا الى نقطة حاسمة صورها المستوى الاخير .

المستوى الرابع : وهو المستوى الحاد من الحوار والحجاج الذي خرج عن طابع المفاخرة الى طابع التنازع والتخاصم والصدام لإنهاء الموقف (( فقال آبن الزبير: لم يَبْقَ يابني هاشم غير المشاتمة والمضاربة))(34) تغير خطاب ابن الزبير فقد وجه حواره الى الحضور وقصد ابن عباس ومن معه من بني هاشم (يابني هاشم) محاولاً ردّ اعتباره بالتهديد بعد أن حُصر في زاوية ضيقة ، ووقف موقفاً لا يحسد عليه من خصمه آبن عباس الذي ارتضاه مفاخراً ومنافراً ، وجاء الجواب هذه المرة من شخصية هاشمية حضرت المجلس وواكبت المفاخرة وناصرت وآزرت ابن عباس (( فقال عبدالله بن الحصين بن الحارث : أقمناه عنك يآبن الزبير ، وتأبى إلا منازعته؟ والله لو نازعته من ساعتك الى انقضاء عمرك ، ما كنت إلا كالسَّغِب (35) الضمآن يفتح فاه يستزيد من الرّيح فلا يشبع من سغب ، ولا يَرْوَى من عطش ، فقل ان شئت أو فَدَعْ ، وآنصرف القوم))(36) .

بدأ حوار آبن الحصين من جهة مناصرة ابن عباس مسترجعاً بداية المحاورة والنصح بالابتعاد عن المفاخرة فأبى ابن الزبير الا المخاصمة والمنازعة متعجباً من موقفه الذي لم يرضه ، مشدداً هذه المرة على ثنائه لأبن عباس ومَلكته الحجاجية

ومؤهلاته وسرعة بداهته وما يمتلكه من رصيد معرفي معيناً على خطابه في المطاولة والتحدي لخصمه مبيناً ذلك في مقولة (والله +لو كنت + ما وإلاّ ) قاطعاً فيها كل حجة لخصمه ، قاهراً له من خلال تصويره لحالة آبن الزبير النفسية في صورة بيانية تحمل تفصيلاً للصفات المشتركة بين (آبن الزبير والسَّغب) في عملية المماثلة (بالسغب الظمآن- يفتح- يستزيد-لا يشبع – ولا يروي ) زيادة من التمكن في كبت الخصم وردِّ تماديه خاتماً المفاخرة بجملةٍ شرطية تدل على الاستمرار بالتفاخر أو تركه (فقل ان شئت أو فدع) وهنا يظهر التحدي لابن الزبير فضلاً عن تخييره في الاستمرار بالحوار والحجاج أو تركه

ويبدو لنا ان الأمر لم يكن مقنعاً للحضور لتغير مسار المفاخرة وخروجها عن حدودها وتحولها الى خصام ونزاع ، بعد ان حكم المجلس لابن عباس بدلالة تركيب الخاتمة (وانصرف القوم) فكان بمثابة الاعلان والاقرار بغلبته .

الهوامش

1- حَجَلَتك : الحجلة ،مثل القُبَة .وحَجَلة العروس بيت يُزين بالثياب والأسِرَّة : لسان العرب ، ابن منظور (ت 711 هـ ) طبعة صححها أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2.1.م ، 3.9/2 .

2- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة ، احمد زكي صفوت ، العصر الاموي ،مصورة عن طبعة القاهرة 1933م ، المكتبة العلمية – بيروت ، لبنان : 2 /114 - 115 .

3- خدرها : بيتها ، وقيل هو ستر يمتدُّ للجارية في ناحية البيت ثم صار البيت كل ما واراك من بيت ونحوه لسان العرب : 2/26-27 .

4- جمهرة خطب العرب : 115/2 .

5- م . ن : 115/2 .

6- م . ن : والصفحة .

7- حَواري : الحواريون خُلصانُ الانبياء عليهم السلام وصفوتهم ، ودليل ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : الزُّبيرُ آبن عَمتي وحَواريَ من أمتي خاصتي من أصحابي وناصري ، والحواريون الذين نقوا من كل شيء ، لسان العرب : 543/2 .

8- ذات النطاقين : كان يقال لأسماء بنت ابي بكر الصديق رضي الله عنها ، لأنها كانت تطارق نطاقاً على نطاق ‹ تطابق › وقيل انه كان لها نطاقان تلبس أحدهما وتحمل في الآخر

الزاد الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر الصديق رضي الله عنه وهما في الغار ، وهذا اصح القولين ، وقيل : انها شقت نطاقها نصفين فأستعملت أحدهما وجعلت الآخر شداداً لزادهما ، وروي عن عائشة رضي الله عنها ان النبي (ص) لما خرج مع ابي بكر مهاجرين صنعت لهما سفرة في جراب فقطعت اسماء بنت ابي بكر رضي الله عنها نطاقها وأوكت به الجراب : لسان العرب : 444/8 .

9- جمهرة خطب العرب : 115/2- 116 .

1.- ينظر معاني النحو ، د. فاضل صالح السامرائي ، مطبعة التعليم العالي في الموصل / العراق ، 199.م : 4/ 6.6 – 6.7 .

11- جمهرة خطب العرب : 4/ 116 .

12- القارة : من قار القانص الصيد يقور قوراً : خَتَلَة ، والقار قوم رماة من العرب والنسبة اليهم قاري ، وزعموا أن رجلين التقيا : أحدهما قاري والآخر أسدي فقال القاري : ان شئت صارعتك وان شئت سابقتك / وان شئت راميتك ، فقال أختر المُراماةَ فقَال القاري قد انصفتني : وانشد قد انصف القارة من راماها ، إنا اذا ما فئةٌ نلقاها : ونرد اولاها على أخراها ثمّ انتزع له سهماً فشكَ فؤاده : لسان العرب : 7/ 395 ، وذكر الزمخشري قول الشاعر : دعونا قارة لاتنفرونا × فنجفل مثل إجفال الظليم ، أراد دعونا مجتمعين كالقارة التي هي الأكمة ، وكانوا رماة الحدق في الجاهلية ، وذكر من لقاء القاري مع الاسدي الذي اختاره الرماة وانشد : قد علمت سلمى من ولاها × انا نصد الخيل من هواها ، وذكر الابيات الاخرى ، المستقصي من امثال العرب : ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت 538هـ) دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ، ط3 ، 1987م ، 189/2- 19. .

13- جمهرة خطب العرب : 116/4 .

14- م . ن : والصفحة .

15- الاصائل : جمع أصيلة ، وهو العشي ( من بعد صلاة العصر الى الغروب ) قال الشاعر : وأقعدُ في أفيائه بالأصائِل ، لسان العرب : 16/11 .

16- جمهرة خطب العرب : 2/ 116- 117 .

17- الحاوي للفتاوي ، جلال الدين السيوطي ، دار الفكر للطباعة والنشر ، 1424هـ : 254 .

18- جمهرة خطب العرب : 2/ 117 .

19- م . ن : 2/ 117 .

2.- تحرُّمك : الحرمة ، الحق المانع من تحليلة ، وتَحرّم صار حراماً اي تحمى بذمته : لسان العرب : 2/ 367 .

21- جمهرة خطب العرب : 2 / 117 .

22- م . ن : والصفحة .
23- م . ن : والصفحة .
24- م . ن : والصفحة .
25- مُتَبَجِّح : تبجحَ به : فخر ، وفلان يتبجح يفتخر ويباهى بشيء ما وقيل : يَتَعظم ، لسان العرب : 244/1 .
26- طليق : من طُلِقَتَ ، وأطلقتُ ((الاسير اي أخليته ، والطلقاء واحدهم طلقاً ، وهو الاسير ، وهم الذين أدخلوا الاسلام كرهاً ، وقيل هم من قريش ، لسان العرب : 5/ 46. .
27- جمهرة خطب العرب : 2 / 117 .
28- رسغت : حبل يشد به البعير شداً شديداً فيمنعه من الانبعاث في المشي .
بِجُرَتك : الجرَّةِ : وهي عصا تربط الى حِبالةٍ تغيب في التراب للضبي يصطاد بها ، فيها وتر فاذا دخلت يده الحبالة انعقدت الأوتار في يده ، فاذا وثَب ليفلتَ فمدّ يده ضرب بتلك العصا يده الاخرى ورجله فكسرها ، لسان العرب : 2 / 126 .
29- الكثكث : دقائق التراب وفتاة الحجارة ، وقالوا بفيه الكَثْكَث : كقولك بفيه التراب والحجَرَ ، لسان العرب : 7/ 443 .
3.- جمهرة خطب العرب : 2 / 118 .
31- معركة الجمل : هي من المعارك التي وقعت (سنة 36هـ) أبان مبايعة الامام عليٌّ بن ابي طالب للخلافة بعد وفاة الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رض) إذ انشق عدد من الصحابة من تلك المبايعة وهم – طلحة والزبير وعائشة- ضد الامام علي (رض) دارت على اثرها معركة طاحنة ادت بحياة عدد كبير من المسلمين إذ كلا الطرفين كانا ينطقان كلمة ( لا اله الا الله) ، تاريخ خليفة ابن خياط ، خليفة بن خياط الليثي العصفري ابو عمر ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، دار القلم ، مؤسسة الرسالة ، دمشق / لبنان ، ط2 ، 1397هـ ، 41 .
32- جمهرة خطب العرب : 2 / 118 .
33- م . ن : والصفحة .
34- م . ن : والصفحة .
35- السَّغِب : السَغْبة يَسْغب سَغباً : جاع وقيل الجوع من التعب ، وربما سمي العطش سَغَباً ، ورجل ساغب : جوعان أو عطشان ، وقال الفراء في قوله تعالى {في يومٍ ذي مَسْغَبةٍ} أي مجاعة : لسان العرب : 4 / 438 – 439 .
36- جمهرة خطب العرب : 2/ 118 – 119 .